بجسده العملاق وجدته بالجوار. لم أشعر به رغم الضجيج الذي يرافقه دوما. خاملا ممتقعا على غير عادته.. المرح هو انتفاضاته من أجل الحياة, يقاوم به سوار المرض المحكم على عنقه منذ أمد.. نظرة جديدة تكسو وجهه الطيب الضخم..

جذبت نفسي لوهلة, وسألت:

"ما بك؟.."

هز رأسه ببطء وأجاب:

"أختنق.."

كنت لحظتها عاكفا على كتاب, منكبا بكل حواسي, أمتص رحيق زهور يانعات, وأمرح بين مروج وأشجار باسقات.. دائما ما يستغرقني هذا العالم الوهمي, المغاير بكل روعته ودهشته, يسلبني نفسي.. لو كنت أعلم لحظتها أن هذا لقائنا الأخير لاقتنصت روحي الهائمة من ملكوتها الأعلى..

لم تمر أيام وذهب..

صوته ينحرني كلما استحضرته ذاكرتي المتأججة بلوعة فراقه, يضج بداخلي تأنيب ضمير: ليتني سألته عما يضايقه, ليتني خففت عنه, وهو المنكوب بالمعاناة..

يباغتني خياله في كل مكان؛ خلف سياج الحديقة, عندما يضمني الطريق, وفي الحُلم.. يطل بقامته الفارهة, وصفحة وجهه كما قرص شمس, وعيناه بهما لمعة حزن شفيف..

أسأله بحرقة: لم الاختناق؟!.. ما يضايقك؟!..

شبح ابتسامته يجيب.. يدير رأسه ويرنو للأفق..

ويمكث ملتحفا بالصمت..

نظارة سوداء

بعناية واهتمام مفرط رتب صفوف الأوراق. وضعها في حقيبته الجلدية الأنيقة, قبلما يغادر مكتبه الفخم ويتجه حيث المرآة الكبيرة, القابعة بين باب الحجرة والمكتبة. صفف شعره الناعم المائل إلى الصفرة باهتمام, وعدل من وضع رابطة عنقه المنسجمة تماما مع حلته الفاخرة, والنظارة السوداء ذات الماركة الشهيرة على عينيه..

كان يبدو خليطا من الأناقة والوسامة والغموض..

وعلاوة على هذا, كان مميزا في كل شيء يقوم به, فما أن يضع أنفاسه المتوهجة المتحمسة وروحة الوثابة في أمر, حتى يتحول في شيء كالسحر إلى ألق وبريق ونجاحات متلاحقة..

وعلى هذا النحو, مر عام بالتمام, منذ تعينه مديرا عاما بالشركة ذائعة الصيت.. كل شيء على ما يرام, وكما ينبغي.. سنة بالتمام ونظرات الإعجاب تحدوه من كل حدب وصوب, بداية من أصغر العاملين وانتهاء برئيس مجلس إدارة الشركة..

ومن أجل هذا أضحى سعيدا بحق, بعد فترة عصيبة من حياته لا يريد أن يتذكرها الآن..

وها منحنى الثقة يصل إلى أقصى مداه, فيما يدلف إلى قاعة الاجتماعات الرئيسية بخطواته المتئدة الواثقة؛ لحضور الاجتماع السنوي لمجلس إدارة الشركة.. وجعل يوزع الابتسامات, ويحي كل من يقابله بإيماءة خفيفة محسوبة من رأسه, حتى وصل إلى المنصة المخصصة لإلقاء كلمته عن انجازات الشركة خلال العام المنصرم..

وفيما يرتب أوراقه, ويستبدل نظارته السوداء بأخرى طبية, كان أعضاء مجلس الإدارة يحتلون مواقعهم خلف المنصة الرئيسة, ومن أمامهم اصطف رؤساء الأقسام والعاملين بالشركة..

شعر برعشة خفيفة في حاجبه الأيسر اختفت معها ابتسامته الحيادية على الفور, وامتدت يداه في سرعة تستعيد النظارة السوداء, وتؤكد من وضعها.. وأد هاجس هاجمه في مولده, مؤكدا لنفسه أن كل شيء على ما يرام.. وبلا تباطؤ انهمك يشرح مستعينا بشاشة العرض الاليكترونية, ما لديه من تقارير, ودراسات جدوى, وجداول حسابية, ورسومات بيانية, وأشياء أخرى كثيرة هو بارع فيها أشد البراعة.

وبرغم هواجسه, والأفكار السوداء التي ناوشته في البدء, كان كل شيء عظيما.. وعلى ما يرام.. وكما ينبغي.. حتى كاد أن ينتهي..

بدأ الأمر بحالة صمت مفاجئ جاهد ليخرج منه بكل طاقته, فخرجت الكلمات مبهمة متآكلة الأحرف.. وبحركات غير واعية أخذ يصلح من وضع النظارة, حتى انفلتت من بين أصابعه المضطربة, لتظهر رعشة حاجبه الأيسر, وعينيه المتسعتين في رعب, وهو ينظر لشيء ما خفي ومخيف.. وتحولت الرعشة في حاجبه إلى انقباضات قوية شملت شق وجهه الأيسر بأكمله..

وسقط أرضا, وارتطمت رأسه بحافة المنصة في عنف, وتملكته حالة من التشنجات العنيفة, وطفق يجرش أسنانه في قوة, وزبدا كثيفا مقززا ينساب من بين شدقيه. كل هذا وسط ذهول الحاضرين الذين التفوا حوله, وقد تباينت النظرات في عيونهم بين الإشفاق والتقزز..

عندما استكان, وبدأ يستعيد وعيه, ربت على كتفه أحد العاملين في حنان, وجعل يمسح آثار الزبد من ياقة قميصه, والدماء المتجلطة على جبهته من أثر الارتطام, وهو يقول مرددا: "حمدا لله.. حمدا لله.. كل شيء علي ما يرام.."